تذكار الشاعرة الكونتس دى نواى

١٨٧٦ — ١٩٣٣

للاستاذ خليل هنداوى

خلاصة مقال نشرته مجلة La Mus Francaise.
فى تموز الماضى للاديب (موريس را)

دى نواى والطبيعة

يقول « جابريول » إن الشاعرة الفتاة ـ صديقة الحدائق ـ قد تأثرت كثيرا بالشاعر الكبير (جامس) وقد وضح هذا التأثر فى ديوانها « القلب الذى لا يمكن تعديده » فهناك تشابه قريب بين الروحين وبين الفنين . فقطوعات الشاعر (جامس) (الآس البرى الأزرق) و (شجرات الجوز ذات الازهار البيضاء) و (طيب الغصون المبتورة قبل الشتاء ، وهو ينتشر كالمحزون فى أجواء الغابة) قد ألهمت (دى نواى) كثيرا . وغذت مخيلتها الشعرية كثيراً . وهب أن (جامس) لم يكن مثرنما بهذه المقاطيع ، فهل كان باستطاعة (دى نواى) أن تستنزل ذلك الالهام ، وان تخترق بروحها ما اخترقت من تلك الآفاق الواسعة .

قد يكون الجواب لا ، ولا ريب ! ولكن مالنا نتنكر على (دى نواى) براعتها وخصائصها ، فهبها أنها كانت حيلة على (جامس) فى كل ما انتجت وأخصبت ، فان للشاعرة وراء هذا كله مجداً خالصا وبراعة خاصة . لقد أغارت على طائفة من معانى (جامس) اغارة روحية لا أدبية ، ونظمت ما تلجلج فيه (جامس) نظما رقيق الحواشى ، لطيف التعبير ، زاخرا بالعاطفة ، جرت فيه على الاسلوب الباطنى ، أسلوب (هوجو ولامرتين)

أما هوجو فقد كان كثير الرؤى والاحلام . و(بودلير) كان يعبث بالطيوب عبثا ، أما (الكونتس) فقد فتحت قلبها للصباح وودت أن تلمسه وتتذوقه بحاستى اللمس والذوق ، كما تقول : « أفتح فمى للهواء الذى ترطبه الأنداء »

وفى موطن آخر تراها لا تشبعها الطيوب ولا الألوان ولا الألحان ، تتذوقها وتظل جائعة نهمة ، فتعلن أنها تود أن تلمس العالم والطبيعة بيدها ، فتقول بلهجة صادقة :

(أريد ان المس عذوبة هذا الفضاء ، هذه العذوبة الندية الزرقاء حيث العصافير السكارى تثب وتنقد فى مساربه كما تشاء)

فهى تريد أن تتذوق وان تتروح وان تلتمس وأن تلتهم جمال الصباح ، هى تستطيع أن تقول مع ((١) سانت انطوان) بتأليه الكون . (أريد أن يكون لى أجنحة ، وان أدخل فى كل شىء ، وان أكون فى كل شىء . أنتشر كالطيوب ، وأنمو كالنبات ، وأجرى كالماء ، وأرن كالألحان ، وأسطع كالنور ، وأوتى جميع الأشكال ، وأنفذ فى كل شكل وهيئة ، وأغور فى أعماق المادة ، وأكون بعد هذا كله ـ المادة . . .)

ودت الشاعرة أن تكون المادة بذاتها ، فدنت منها وامتزجت مع الأشياء وقالت (سيكون جميلا وحقاً إيمانى . . . . بأن قلبى المتوقد هو كهذه الكمثرى التى ينضج جلدها رويداً تحت أشعة الشمس) . وتمنت ان تكون أحد الكائنات فى الغاب ، فقالت والجشع تغلب عليها :

(من أين جئت ؟ إن الوجود لم يحل العقدة التى تجمعنى بهذا المرأى .

أنا بنفسى ، أفق ، وجدول ، وكوكب ، وغابة)

على أن رغبتها قد تثور فتأبى أن تماثل جسدها الهالك بكل أشياء هذا الوجود ، ويهيج نهمها الذى لا يشبع فتخاطب الزمن قائلة :

(وأنا مثل الزمن . أنا قبل مصر العتيقة . وقبل اليونان . كنت فى عهد الماء)

على أن مثل هذا الهذيان الخيالى قد يدعو إلى الابتسام ، واذا كانت الشاعرة ـ فى واديها الذى هامت فيه ـ لم تخلص نفسها من تأثير أترابها الشعراء فيها ، ولم تجد لمسراتها التى تفننت بها الحانا جديدة قوية ، فانها قد جارتهم وبزتهم فى كثير من مقاطيعها ، وابتدعت لنفسها أفقا جديدا ، واذا أدرك الشعراء الطبيعة وفهموا معانيها ورأوا الوانها ، وتنشقوا أريجها ، فهى قد تروحت هذا الأريج وأصغت الى ألحان الطبيعة التمتامة ، ولمست أشياءها واكلتها وشربتها .

أليس هذا نهمها الشعرى يبدو فى ثنايا سطورها ؟

وهكذا أجدنى أستطيع أن أطرح يدى للا نهاية

(١) الرواية (لفلوبير)

فاذا كل شيء دان من فمي ، لايمتنع عنه شيء)

واذا ماهبت السائم العاطرة تروحت شذا خمور «آسيا»)

(وهذه الريح المهنمة . . .

المزودة بالسماء والفضاء ، والمدن الواسعة

هي شبيهة بهذه الخمور القادم شذاها من « آسيا »

واذا ما جنحت الشمس للغروب وكان الأفق هادئا جميلا ، خيل لها أن الطبيعة نفسها قد استحالت كلة جميلة أمينة مستوية على حضنها

(وكنت أحس أن هذا المساء الأنيس

يهرع الى من كل صوب ومن كل طريق

لينام بين يدى)

فيالها من ساحرة نهمة لاتشبع ، ويالها من غادة مجوسية — كما دعاها مارسيل بروست — هذه الغادة النهمة التي لاتقنع بارسال طرفها فى الكون ، ولا بالاصغاء الى أصواته ، ولا بتروح شذاه ، فهي تعمل على ان تلمس وأن تلتهم الوجود التهاما الشره . ولهذه الرغبة الملتهبة والصور القوية المكتنزة يعود سر استعمالها للالفاظ (اللحمية) فى شعرها ، ودى نواى الشاعرة هي التى كتبت (لأندريه جيد) عن الأطعمة الترابية — بكل مافى معنى الكلمة حتى أنزلت الطبيعة والحياة عندها منزلة (راحة الحلقوم)

(إن الهواء الحار يحمل الى أريكة تهافت عليها روحي . وبجاجة هذا المرج الاخضر هي فى عيني مائدة فاخرة)

لكن اغراقها كثيرا فى التشابيه والمجازات قد يضل القارىء عن اغراض المقطوعة وعن قصد الشاعرة .

قد تكون وجهتها فى شعرها وجهة (جامس) فى شعره ، فان (جامس) قد تغنى بجبال (البرية) التى حنت على طفولته وشدا بجمالها الساحر بألحان صادقة سامية رائعة ، و (دى نواى) قد تغنت بحدائق (فالوا) الفينانة ، وبدت شرقيتها فى كل مانظمت هذه الشرقية المغمضة ، فكانت تتروح عطور المشرق وتجد الوان جزائر (الارخيل) وتذكر الارض وقد حالت عند المغيب شعلة ملتهبة ، هذه المناظر وهذه الألوان قد آثرتها على كل شيء ووصفتها وحبتها بالألوان والشذا وبكل تلك الخاطرات السامية التى تموج فى قلبها .

قال أحد نقادها بعد وفاتها « ان دى نواى قد أحبت التراب القدسى الذى يولد منه كل شيء ، واليه كل شيء يعود ، هذا المعبد الذى تتعاقب عليه الفصول الاربعة تعاقبا متشابها . أحبت فى الأرض تلك المرضع التى يفيض قلبها رأفة وحنانا ، والتى تسمو عن الانسان القاسى على الضعفاء .

واذا تأمل قارىء (دى نواى) فى شعرها يدرك أن هذا رأى خاطىء ، لأن الشاعرة لم تقدس الأعمال ولا الأيام . لكنها كانت كاحدى كاهنات (ادونيس) أو (باخوس) تحمل فى صدرها ملذات حساسة متيقظة . وهى لاتتخذ الطبيعة موضوعا لها ، بل تتخذ موضوعها نفسها ، واذا ما خرجت عن نفسها لتتحد مع النجوم الساهرة ، أو لتمتزج مع الأطياف التى تخلقها بخيالها ، فانما تريد من وراء هذا كله أن تنمى وجودها ، وتستخلص من الوجود مسراتها النادرة

وهى القائلة عن نفسها : « قد أكون غير مجدية ، ولكن فراغى لايملؤه أحد »

« يتبع »

خليل هنداوى